﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾ [النّمل: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبْطُ بين مجيءِ معجزةِ موسى، وجحودِ فرعونَ وقومِهِ بآياتِها البيِّنات

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ وصفَ فرعونَ وقومِهِ لآياتِ موسَى عليه السلام، بأنَّها سِحْرٌ مُبينٌ؛ جاءت هذه الآيةُ ببيانِ أنَّهم كانوا يُنكِرونَها في الظّاهرِ، مع أنَّهم كانوا في قرارة أنفسهم على غير ما تنطق به ألسنتهم، فقال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَحَدُواْ﴾: (جحد) أصلٌ يدلُّ على قلَّةِ الخيرِ[1]، يُقالُ: رجلٌ جَحِدٌ، أيْ: شحيحٌ قليلُ الخيرِ، يُظهِرُ الفَقْرَ[2]، وأرضٌ جَحِدَةٌ: قليلةُ النَّبْتِ[3]، والجُحودُ: نفيُ ما في القلبِ إثباتُهُ، وإثباتُ ما في القلبِ نفيُهُ[4]، ومعنى ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ في الآية: لم يقرّوا بها، وأنكروها رغم وضوحها.

2) ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾: (يقن) أصلٌ يدلُّ على ثبوتِ الشَّيءِ واستقرارِهِ[5]، واليقينُ: هو سكونُ الفَهْمِ معَ ثباتِ الحُكْمِ، وأصلُهُ مِنْ: يَقَنَ الماءُ، أيْ: ثبتَ وسكنَ، ويُقالُ: أيقنَ الرَّجلُ، ويَقَنَ، وتيقَّنَ، واستيقنَ، وقولُهُ: ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾، أي: تيقَّنَتْها[6]، وقيلَ: اليقينُ مِنْ صفةِ العِلمِ فوقَ المعرفةِ والدِّرايةِ، يقالُ: علمٌ يقينٍ، ولا يقالُ: معرفةٌ يقينٍ[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحد).
(2) الخليل، العين: (جحد).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (جحد).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جحد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (يقن).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (يقن).
(7) الراغب، المفردات: (يقن).

3) ﴿ظُلْمًا﴾: (ظلم) أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما خِلافُ الضِّياءِ والنُّورِ، والآخَرُ وضْعُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِهِ تَعَدِّيًا[1]، إمّا بنقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بعُدولٍ عن وقتِهِ أو مكانِهِ، ولذلكَ يُقالُ: ظلمتُ السِّقاءَ، أيْ: تناولتُهُ في غيرِ وقتِهِ، ويُسمَّى ذلكَ اللَّبَنُ: الظَّليمَ[2]، والظُّلْمُ لا يَخْرُجُ عن انتقاصِ المُستحقِّ، فالجَوْرُ على حقوقِ النّاسِ منعٌ لهُم منها[3]، ويُقال فيما يكثر، وفيما يقلُّ من التَّجاوز، ولهذا يُستعمل في الذَّنب الكبير والصَّغير[4].

4) ﴿وَعُلُوًّا﴾: (علو) أصلٌ يدلُّ على السُّموِّ والارتفاعِ[5]، فالعُلوُّ: ضدُّ السُّفْلِ، وهو الارتفاعُ، ويُقالُ: علا يَعْلو عُلوًّا، وهو عالٍ، وعَلِيَ يَعْلَى عَلاءً، فهو عَلِيٌّ[6]، ويدور أصل هذه الكلمة حول ارتفاع الشَّيءِ فوق شيءٍ تحته أو أدناه، وكلُّ ذلك راجعٌ إلى العلو المادي، ويُطلق على العلوِّ المعنويِّ أيضًا، والسّياق يُبيِّن كلًّا منهما، ومنه: علا فلانٌ فلانًا، أيْ: قهره، والعلو: التَّكبُّر[7]، وهو المقصود في الآية الكريمة.

5) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: (عقب) أصلانِ: أحدُهما يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ وإتيانِهِ بعدَ غيرِهِ، والآخرُ يدلُّ على ارتفاعٍ وشدَّةٍ وصعوبةٍ[8]، يُقالُ: جاءَ في عَقِبِ الشَّهرِ، أي: آخِرِهِ، وعقَّبَهُ؛ إذا تلاهُ[9]، وتعقَّبتُ ما صنعَ فلانٌ، أيْ: تتبَّعتُهُ[10]، والعُقْبُ والعُقْبَى يختصّانِ بالثَّوابِ، قالَ تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: 44]، وإطلاقُ العاقبةِ يختصُّ بالثَّوابِ، نحوُ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قد يُستعمَلُ في العقوبةِ[11]، والمعنى الأخير هو المقصود في الآية الكريمة.

6) ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾: (فسد) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، فَسَدَ الشَّيْءُ يَفْسُدُ فَسادًا وفُسودًا، وهوَ فاسِدٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(2) الراغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (ظلم).
(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ: (ظلم).
(4) الراغب، المُفردات: (ظلم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علو).
(6) الراغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحفاظ: (علو).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (علو - على).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(9) الرّاغب، المُفردات: (عقب).
(10) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (عقب).
(11) الراغب، المُفردات: (عقب).

وفَسيدٌ[1]، والفسادُ: خروجُ الشَّيءِ عنِ الاعتدالِ، قليلًا كانَ الخروجُ أو كثيرًا، والصَّلاحُ ضدُّهُ، ويُستعمَلُ ذلكَ في النَّفْسِ والبَدَنِ والأشياءِ الخارجةِ عنِ الاستقامةِ، يُقالُ: فَسَدَ فسادًا، وأفسدَهُ غيرُهُ، قالَ تعالى: ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [المؤمنون: 71]، وقالَ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: 11][2]، والاستفسادُ: خلافُ الاستصلاحِ، والمَفْسَدةُ: خلافُ المَصْلَحةِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإنـكـارُ لِـما هو يقين في النَّفس، ظـلـم وعـلـوٌّ واستكبار وعتوٌّ

بيَّنت هذه الآيةُ جحودَ فرعون وقومه بالآياتِ الَّتي جاءَهم بها موسَى ﷺ مِنْ عندِ اللهِ، مع عِلْمهم يقينًا أنَّها مِنْ عندِه سبحانه، ومع ذلك عاندوا، وتكبَّروا؛ لِما عندهم من جرأة على العدوان، واستكبارٍ على الخضوع للحقِّ، (فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبةُ تكذيبِ هؤلاءِ، وماذا حلَّ بهِم، فإنَّهم أُخرِجوا مِنْ جنّاتٍ وعُيونٍ، وزُروعٍ ومقامٍ كريمٍ، إلى هلاكٍ في العاجلِ بالإغراقِ، وفي الآجلِ إلى عذابٍ دائمٍ لا يُفَتَّرُ عنهُم، وهم فيهِ مُبْلِسونَ)[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في جملة: ﴿وَجَحَدُواْ﴾:

جـحـودُ الآيـاتِ كـفـرانٌ مـبـين، وتأبٍّ مهين

الواوُ في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾؛ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ [النمل: 13]، وهي تفيدُ دخولَها معَها في حيِّزِ جوابِ (لمّا)، في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ [النمل: 13]، فيكونُ فرعونُ وقومُهُ قد قابلوا الآياتِ الَّتي جاءَهم بها موسَى ﷺ بالجُحودِ وبوصفِها بأنَّها سِحْرٌ مُبينٌ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فسد).
(2) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (فسد).
(3) الجوهري، الصّحاح: (فسد).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 435.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجحودِ دون الإنكارِ:

جـحـودُ مـا هو موجودٌ، كفران بالآيات وكنود

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالجحود دون الإنكار، في قوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾؛ لوجود فرقٍ بينهما في الاستعمال، وإن تشاركا في مصاحبة الكفرِ، غير أنَّ كفرَ الجحودِ، يكون مع معرفة القلبِ بصحَّةِ ما يجحده، لكنَّه لا يُقرُّه بلسانه، ومن ذلك كفْرُ إبليس لعنه اللّه.

وممّا يدلُّ عليه التَّعبيرُ بالجحود أنَّ الكفّارَ مع كُفرهم في الدَّنيا، يعترفون بوجود الرَّبِّ، وإن أظهروا التَّكذيبَ في الظّاهر، وممّا يدلُّ عليه أيضًا نفيُ ما يثبت في العقل وإثبات ما ينفى في العقل، ففرعونُ وقومه يجحدون الحقَّ بعقولهم وأقوالهم، لكنَّ نفوسَهم مستيقنةٌ؛ لأنَّه لا سبيل لها لأنْ تُنكر وتَجحد[1].

دلالةُ الماضي ﴿وَجَحَدُواْ﴾:

الجحودُ جبلَّة في الأنفس، وتنكُّرٌ للهُدى الأقدس

دلَّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ على أنَّ جُحودَ فرعونَ وقومِهِ بآياتِ موسَى عليه السلام أمرٌ قد تحقَّقَ وثبتَ، لا شكَّ فيهِ ولا امتراءَ؛ لأنَّهُ أمرٌ تخلَّقت بهِ نفوسُهم، وصارَ صفةً مِنْ صفاتِهم الجِبِلِّيَّةِ الَّتي لا تفارقُهم.

دلالةُ الجمعِ بقوله: ﴿وَجَحَدُواْ﴾:

الـجـحـودُ الـجـمـاعـيُّ لـلآيات، تمالُؤٌ على الباطل

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ مُسنِدًا الجحودَ إلى الجماعة في قوله: ﴿وَجَحَدُواْ﴾، وذلك من خلال واو الجماعة؛ للدَّلالة على أنَّ جحودهم للآيات التي جاء بها موسى عليه السلام، كان جحودًا جماعيًّا، وإن كان في ظاهر الأمر أنَّه واقع من فرعون باعتبار ادِّعائه الألوهيَّة، لكن دلَّ التَّعبيرُ بواو الجماعة على أنَّهم وافقوه على هذا الجحود، والموافقة على الكفر كفرٌ، ولذلك كان العقابُ جماعيًّا، كما صوَّر ذلك القرآن بقوله: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧﴾ [الدُّخان: 25 - 27].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5438.

سِرُّ التَّعديةِ بالباءِ في ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾:

الجحودُ كفرٌ سافر، مع وجود الدَّليل الظّاهر

عُدّي الفعل ﴿وَجَحَدُواْ﴾ بالباء، في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾؛ لأنَّ معناهُ: وكذَّبوا بها[1]، فالجُحودُ هنا مُضمَّنٌ معنى التَّكذيبِ، ولهذا عُدّيَ بالباءِ، وإلّا فهو مُتعدٍّ بنفسِهِ، يُقالُ: جَحَدَهُ حقَّهُ[2]، وقد ورد استعمالُ القرآن لهذا الفعل في أغلب مواضعهِ مُتعدّيًا بالباء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [هود: 59]، وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: 51]، وعلَّة ذلك أنَّ الجحود أبلغُ من الكفر؛ لأنَّه كفرٌ مع وجود الدَّليل الظاهر؛ لذلك كانت الباءُ دالَّةً على شدَّة تلبُّسِهم بالكفر لآيات اللّه.

دلالةُ الإضمارِ في قوله: ﴿بِهَا﴾:

الخفاءُ بالإضمارِ، يناسب الجحودَ والإنكار

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالإضمار عن الآيات، فلم يقل: (وجحدوا بالآيات) مُظهرًا، وذلك لسبق ذِكرها في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا﴾ [النمل: 13]، ويمكن أن يُقال: إنَّ الإضمارَ جاء وصفًا لحالة الجحود التي وقعت من فرعونَ وقومه، وهي حالةُ إنكارٍ شديدٍ يُناسبها الخفاءُ، فَهُم لا يعتبرون وجودها، ولم يهتدوا بها.

دلالة الواو في جملة: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾:

الإنكارُ باللِّسانِ، مهلك مع الإيقان بالوجدان

الظّاهرُ والأبلغُ أنَّ الواوَ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ واوُ الحالِ، و(قد) بعدَها مُضمَرةٌ[3]، أيْ: كَفَروا بها، وأنكروها في الظّاهرِ، وقد استيقنَتْ أنفُسُهم في الباطنِ أنَّها آياتٌ مِنْ عندِ اللّهِ، وكابَروا، وسمَّوْها سِحْرًا[4]، وفي هذهِ الحالِ توبيخٌ عظيمٌ لهُم، وتنبيهٌ على أنَّ الإيقانَ لا يفيدُ عندَ وجودِ علامةِ الإنكارِ، كالإنكارِ باللِّسانِ[5].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 156.
(2) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 356.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 352.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 216.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 356.

سرُّ التَّعبيرِ بالاستيقان بعد الجحود:

التَّكذيبُ مع العلم هلكة، وحجَّة على صاحبه مهلكة

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بذِكْر الفعل ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ بعد قوله: ﴿وَجَحَدُواْ﴾، وإن كان المعنى المُراد منها مذكور في لفظ الجحود؛ لأنَّه إنكارٌ مع علمٍ، إلّا أنَّ القرآنَ جاء بالفعل ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾؛ لأنَّ الجحود ليس على معناه الأصلي؛ بل هو مُستعمَلٌ لمعنى التكذيب، والتَّكذيب أعمُّ من أن يكون إنكارًا مع علمٍ أو إنكارًا مع جهلٍ، فلمّا كان مُبهمًا؛ بيَّنه مضمونُ الجملة الحاليَّة، ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ بأنَّ المُراد: التَّكذيبُ مع علمٍ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾:

الكفرُ بالآيات مع التَّحقُّق، إنكارٌ وهلاك وتمزُّق

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ استيقانَ فرعونَ وقومِهِ بالآياتِ الَّتي جاءَ بها موسَى عليه السلام أمرٌ قد تحقَّقَ، وثبتَ، واستقرَّ في أنفُسِهم استقرارًا لا يُزاحِمُهُ شكٌّ ولا ارتيابٌ.

بلاغةُ الإيجازِ في ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾:

الجحودُ مع الاستيقان خللٌ في الفهم والإيمان

في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ إيجازٌ بحذفِ حرفِ الجرِّ وتعديةِ الفعلِ إلى المجرورِ، وذلكَ أنَّ ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾، بمعنى: أيقنَتْ بها، فحُذِفَ حرفُ الجرِّ، وعُدِّيَ الفعلُ إلى المجرورِ على التَّوسُّعِ، أو على نزعِ الخافضِ، أيْ: تحقَّقَتْها عُقولُهم[2].

دلالةُ العدولِ إلى ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾:

الاستيقانُ منوطٌ بالآيات، لا بالأنفس الجاحدات

عدل القرآنُ الكريمُ إلى هذا التركيب ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ دون: (وأيقنت أنفسهم بها)؛ لِما في هذا العدولِ مِن فائدةٍ بلاغيَّةٍ؛ وهي تقديمُ المفعولِ - وهو الهاءُ في ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ - على الفاعلِ ﴿أَنفُسُهُمْ﴾، والغرضُ مِنْ هذا التَّقديمِ العنايةُ بإيقاعِ الاستيقانِ على

(1) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 356.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 232.

الآياتِ الَّتي جاءَ بها موسَى ﷺ، ولو جيءَ بالتَّركيبِ على أصلِهِ؛ لكانَ الظّاهرُ أنْ يقالَ: (وأيقنَتْ أنفسُهم بها).

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (اسْتَفْعَلَ):

الاستيقانُ أبلغُ مِنَ الإيقانِ، في الإيضاح والبيان

جيءَ بصيغةِ (استفعلَ) في قولِ الحقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾، ولم يقل: (وأيقنَتْ بها)؛ لأنَّ الاستيقانَ أبلغُ مِنَ الإيقانِ[1]، فالسّينُ والتّاءُ للمبالغةِ[2]، ففي زيادة المبنى زيادة للمعنى، وفي هذه الصّيغة كذلك زيادة تأكيدٍ؛ إذ الحاصلُ بالطَّلبِ في غايةِ الكمالِ[3]، وقيلَ: (استفعلَ) هنا بمعنى: (تفعَّلَ)، نحو: استعظمَ واستكبرَ، بمعنى: تعظَّمَ وتكبَّرَ[4].

فائدةُ ذِكرِ لفظ (الأنفُسِ):

الاستيقان إشارةٌ على جحود الأنفس الأمّارة

أفادَ ذِكْرُ الأنفُسِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أنَّهم جحدوا هذه الآيات البيِّنات بألسنتِهم، واستيقنوها في قلوبِهم وضمائرِهم[5].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ دون (واستيقنوا):

العدولُ إلى إيقانِ الأرواح والأذهانِ، أولى وأظهر في البيان

آثر التَّعبيرُ القرآنيُّ القول: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾، وكان الظّاهر أن يجيء على صيغة (واستيقَنوا)؛ تبعًا للفعل السّابق ﴿وَجَحَدُواْ﴾، وإنَّما كان هذا العدول؛ لأنَّ محلَّ الإيقانِ هو الأرواحُ والأذهانُ، والجحودُ وإنْ كانَ كذلكَ لكنْ أُريدَت المبالغةُ، كأنَّهم جَحَدوا بأبدانِهم وأرواحِهم، والظّاهرُ أنَّ إسنادَ الجُحودِ إليهم مجازٌ؛ لأنَّهُ للأنفُسِ - أي: الأرواحِ - كالاستيقانِ[6].

أثرُ إعرابِ ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ على المعنى:

الظُّلمُ في الأرض والعلوُّ، مسلكٌ للجحود والغلوِّ

انتصب قوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 546، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 594.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 232.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 356.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 216، والسّمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 580.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 352، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 546.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 356.

﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ على أنَّهما مفعولٌ لأجله من فعل ﴿وَجَحَدُواْ﴾، أيْ: جحدوا، وأنكروا، وخالفوا نفوسهم وفطرتهم؛ لأجل الظُّلم وإرادتهم العلوَّ في الأرض[1]، ويجوزُ أنْ يكونَ انتصابُهما على الحاليَّةِ، أيْ: ظالمينَ وعالينَ مُترفِّعينِ عنِ الإيمانِ[2].

سرُّ عطفِ العُلوِّ على الظُّلمِ:

من تفاقَم علوُّه؛ استشرى ظلمه

عُطِفَ العُلوُّ على الظُّلم في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ لزيادةِ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ لحالِ فرعونَ وقومِهِ، حيثُ جمعوا بينَ وصفَيْنِ في غايةِ القُبْحِ، وهما الظُّلمُ والعُلوُّ، ولو اتَّصفوا بواحدٍ منهما فقط؛ لكانَ كافيًا في تقبيحِ شأنِهم.

بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشْرِ في ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾:

ارتباطُ الظُّلمِ بالكفران، والعلوِّ بالإيقان

﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ في قولِهِ سبحانه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، نَشْرٌ على ترتيبِ اللَّفِّ، فالظُّلمُ في الجَحْدِ بها، والعُلوُّ في كونِهم موقِنينَ بها[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفاءِ ﴿فَٱنظُرْ﴾:

التذكيرُ بسوء العاقبةِ، سمةٌ في الوعظ غالبة

الفاءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ للتَّفريعِ[4]، والغرضُ مِنْ هذا التَّفريعِ المبادرةُ بالتدبُّرِ والتأمُّلِ عند سماعِ أخبارِ قومِ فرعونَ، في ما آلَ إليه أمرهم من الغرقِ والهلاكِ، كما قال ربُّنا سبحانه: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: 136]، والتَّذكيرُ بسوءِ عاقبتِهم[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ (النَّظر):

الدَّعوةُ إلى التَّأمُّل والنَّظر، أخذٌ للعظات والعِبَر

التَّعبيرُ بفعلِ الأمرِ ﴿فَٱنظُرْ﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ

(1) أبو زهرة: زهرة التفاسير: 10/ 5438.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 36، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 357.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 36.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 138.

﴿كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ يدلُّ على أهميَّة التَّفكُّر والتَّأمُّل في أخبار مَن سبق من الأمم الفاسدة الظالمة، ولا سيَّما فرعونَ ومَلَئِه، وفيه دعوةٌ إلى دراسة التاريخ لأخذ العظةِ والاعتبار؛ لأنَّه لا يمكن معرفة عاقبة أمرهم إلّا بعد دراسة أخبارهم، وفيه إشارةٌ إلى جَعْلِ ما هو معلومٌ مِنْ حالِهم فيما لحقَ بِهِم مِنَ العذابِ بمنزلةِ الشَّيءِ المُشاهَدِ للسّامعينَ، فأمرَ بالنَّظرِ إليه[1]، كأنَّه مُتَحقِّقٌ مشاهد يُنظَرُ إليه بالعينِ الباصرةِ.

دلالةُ إبهامِ المخاطَبِ في قوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾:

دعـوةُ كـلِّ ناظرٍ للاعتبار بعاقبة كلِّ مفسدٍ فاجر

الخطابُ في قولِهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ[2]؛ لأنَّ المُراد دعوةُ كلِّ مَنْ له عقلٌ ونظرٌ أن يعتبر بما آل إليه أمرهم من الغرق والهلاك، وفي ذلكَ إيذانٌ بأنَّ ما لحقَهم مِنَ العذابِ، أمرٌ ظاهرٌ مشهورٌ بمنزلةِ المحسوسِ المُشاهَدِ، فيصحُّ أنْ يُؤمَرَ بالنَّظرِ إليه، كلُّ مَنْ يتأتَّى منهُ النَّظرُ، ويجوزُ أنْ يكونَ الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ؛ تسليةً لهُ بذِكْرِ ما حلَّ بالمُكذِّبين بالرُّسُلِ قبلَهُ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿كَيْفَ﴾ في السّياق:

مفادُ الاستفهام عن مآل فرعونَ، وقومه اللِّئام

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ﴿كَيْفَ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ لأنَّ التَّعبيرَ بها مناسبٌ لما آل إليه أمرُ فرعونَ وملئه من الحال العجيبة الَّتي وصلوا إليها من الفساد، وكأنَّ المعنى: (انظر عاقبة المفسدين التي يُسأل عنها بكيف)[4]، ويجوزُ أنْ تكونَ مُجرَّدَة عن معنى الاستفهام منصوبة على المفعوليَّة[5]، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿كَيْفَ﴾ استفهامًا مُعلِّقًا فعلَ النَّظرِ عنِ العملِ، والاستفهامُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 36.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.

للتَّعجيبِ[1]؛ نُبِّهَ بذلكَ على أنَّ خبرَهم ممّا تتوفَّرُ الدَّواعي على السُّؤالِ عنهُ لعظَمتِهِ[2].

دلالةُ تذكيرِ الفعل ﴿كَانَ﴾ دون تأنيثِهِ:

ورد الفعل ﴿كَانَ﴾ مُذكَّرًا رغم تأنيث لفظ ﴿عَقِبَةُ﴾؛ جريًا على أسلوب العرب في جواز تذكير الفعل وتأنيثه، بناءً على أنَّ المقصودَ بالعاقبة محلُّ العذاب، أو العذابُ نفسه.

العاقبةُ الخاسرةُ، عِبرةٌ للعقول الباصرة

سِرُّ التَّعبيرِ بالعاقبةِ دونَ غيرِها:

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿عَقِبَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ لما تحمله هذه اللَّفظة المُضافة إلى المُفسدين من التَّهديد والوعيد في الدُّنيا والآخرة، ففي الدُّنيا الغرقُ والهلاك، وفي الآخرة العذابُ الشَّديد.

لفظُ العاقبةِ أثيرٌ؛ لأنَّه منبئٌ عن المصير

بلاغةُ الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ:

كانَ الظّاهر أنْ يُقالَ: (فانظُرْ كيفَ كانَ عاقبتُهم)، أيْ: آخِرُ أمرِ فرعونَ وقومِهِ، ولكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ، فقيلَ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ ليُدلَّ على الوصفِ الَّذي كانَ سببًا لأخذِهم بالعقوبةِ[3]، وفي ذلكَ ذمٌّ لهُم وتحذيرٌ لأمثالِهم[4].

الأخذُ بالعقوبة المُستحقَّة، تجسيد لأوامر الله المحقَّة

علَّةُ عدمِ ذِكرِ عقوبةِ فرعونَ وقومِهِ:

لم تذكرِ الآية الكريمة عقوبةَ فرعون وقومه - وهي الغرق - كما هو مذكور في آيات أُخر، إنَّما جاء قولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ على العموم دون تخصيصِ ما آلَ إليهِ فرعونُ وقومُهُ مِنَ الإغراقِ على الوجهِ الهائلِ الَّذي هو عِبرةٌ للظّالمينَ؛ تنبيهًا على أنَّهُ عُرْضةٌ لكلِّ ناظرٍ، مشهورٌ لدَى كلِّ بادٍ وحاضرٍ[5]، ولتعظيمِ شأنِهِ وتهويلِهِ[6].

ذيوعُ العقوبةِ في الخبر؛ لأنَّها أشهرُ من أن تذكر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 252، والبقاعي، نظم الدرر: 14/ 138.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 138.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 165.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 275، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 165.
(6) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10751.

بلاغةُ التَّعريضِ في: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ﴾:

تهديدُ المشركينَ بالعاقبةِ، طريقةٌ في التَّعريض صائبةٌ

تظهر بلاغةُ التعريضِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في تسلية النَّبيِّ ﷺ بما حلَّ بالمُكذِّبينَ بالرُّسلِ قبلَهُ، وفيه تعريضٌ بتهديدِ المشركينَ بمِثْلِ تلكَ العاقبةِ[1]، والدَّليلُ على التَّعريضِ هو الإتيانُ بوصفِ الإفسادِ المُشعِرِ بأنَّ مآلَ جميعِ المُفسِدينَ لا يكونُ إلى خيرٍ.

سِرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بلفظِ (الإفسادِ):

الإفسادُ خيبةٌ في الدُّنيا، وخسرانٌ في المعاد

في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، آثر القرآن الكريم وصْفَهم بالمفسدين دون (الظالمين) مثلًا؛ لأنَّ الفسادَ لفظٌ عامٌّ، وهو نقيضُ الإصلاح، ويُطلق على أخذ المال ظلمًا بغير وجهِ حقٍّ، وعلى إهلاك الزَّرع والنَّسل إلى غير ذلك من صور الفساد الَّتي ارتكبها فرعون وملؤه مع بني إسرائيل مِن قتْلِ أبنائهم واستحياء نسائهم، ولأنَّ الفساد يشمل الظُّلم وغيره؛ فهو أعمُّ.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

تفاقمُ الفسادِ، نـاشئٌ عن الإبغالِ في الإفساد

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، ولم يقل مثلًا: (الَّذينَ أفسَدوا)؛ لأنَّ صيغةَ اسمِ الفاعلِ تدلُّ على رُسوخِهم في الإفسادِ، وأنَّهُ صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلِّيَّةِ الَّتي لا تفارقُهم، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لشأنِهم وسوءِ حالِهم ومآلِهم، كذلك في التَّعبيرِ بهذهِ الصِّيغةِ مراعاةُ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ القرآنيَّةِ لِما قبلَها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجَحْدُ أخصُّ مِنَ الإنكارِ، وكلاهما مفردة قرآنيَّةٌ صميمة

الجَحْد والإنكار:

الجَحْدُ أخصُّ مِنَ الإنكارِ؛ لأنَّ الجَحْدَ إنكارُ الشَّيءِ الظَّاهرِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 233.

كقولِهِ تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾ [الأعراف: 51]، فجُعِلَ الجَحْدُ بما تدلُّ عليهِ الآياتُ، ولا يكونُ ذلكَ إلّا ظاهرًا، ويجوزُ أنْ يُقالَ: الجَحْدُ هو إنكارُ الشَّيءِ معَ العلمِ بهِ، كقولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾، فجُعِلَ الجَحْدُ معَ اليقينِ، والإنكارُ يكونُ معَ العلمِ وغيرِهِ[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 157.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»